ملاحظات حول تحقيق التراث المناقبي بالمغرب

د. محمد الشريف،
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي،
تطوان، المملكة المغربية

لا يخامرنا شك في أن الاهتمام بإحياء التراث المغربي وتحقيقه والإفادة منه وتقويمه بشكل صحيح، هو عمل مشروع. بل إنه من صميم مهام البحث العلمي الذي يظل تقدمه وثيق الارتباط بمدى اهتمام الباحثين وإسهامهم في الحفر داخل التراث المخطوط وتحقيقه تحقيقا علميا (التميمي، م. 2002: 06). فضلا عن هذا، فإن الاهتمام بالتراث يمثل جزء من كينونتنا وهويتنا. ذلك أن الاهتمام به " ليس تاريخيا ماضويا بقدر ما هو عمل حياتي مستقبلي...، والأمر لا يمكن أن يبقى، كما هو الآن (تقريبا)، في حدود الوفاء النظري له والإشادة العاطفية به...، وإنما هو كذلك، أو قبل ذلك، في الانتفاع به، والوفاء لأنفسنا من خلاله...، إنه ليس زينة، ولكنه سلاح...، ليس تباهيا و إدلالاً، ولكنه قبل ذلك نوع من الإعداد، ولون من كسب الثقة بالنفس" (شكري، ف. 1980: 212).

ومن المعلوم أن التصوف السني يمثل إحدى الركائز الأساسية لهوية المغاربة وعقيدتهم إلى جانب كل من المذهب الأشعري والفقه المالكي. وقد أصبح التراث الصوفي عامة، والمؤلفات المناقبية بصفة خاصة، يثير اهتمام الباحثين منذ مدة (أنظر ك.ج. 1989). ذلك أن "للتاريخ وأدب المناقب من نقط الالتقاء وأوجه الاختلاف ما يدعو إلى الربط بينهما على أكثر من مستوى" (القبلي، م. 1989: 07 – السبتي، ع.أ. 1989: 93- Kably, XXX :M.1986)، خاصة وأن الأدب المناقبي يقدم معطيات تاريخية ثمينة لها علاقة بالتاريخ الاجتماعي والديني عامة، وبتاريخ تكوُّن المخيال والعقليات بالمغرب الإسلامي بصفة خاصة. ويتجه البحث التاريخي حاليا، أكثر فأكثر، نحو إقرار قيمة كتب المناقب، ليس فقط من حيث كونها مصادر من مصادر التاريخ المغربي، بل باعتبارها موارد قد توفر للمؤرخ معلومات تاريخية أغنى وأوثق من المصادر المسماة بـ "التاريخية" نفسها (الزاهري، س. 2004: 04- 05 – سلامة العامري، ن. 2001: 32).

والجدير بالذكر أن المغرب الأقصى لم يكن البلد الوحيد بالغرب الإسلامي الذي أنتج أدبا مناقبيا غزيراً في العصور الوسطى. إذ لم تخل الأندلس والمغرب الأوسط وإفريقية (تونس) من هذا النوع الأدبي التاريخي. بل لعل هذه الأخيرة كانت رائدة في هذا الميدان بتأليف كتاب "رياض النفوس"، لأبي بكر عبد الله المالكي القيرواني (توفي سنة

474 هـ)، وقد طبعت "مناقب عائشة المنوبية" (ت. 665 هـ) سنة 1925(طبعت بدون تحقيق بتونس سنة 1344 هـ. وتوجد مخطوطة دار الكتب الوطنية بتونس رقم 17945، 18221). ونجد بدار الكتب الوطنية بتونس مجموعة من المؤلفات المناقبية المخطوطة، نذكر منها:

- مناقب أبي الحسن الشاذلي، لابن الصباغ الحميري
- تعريف أولياء الأربعين أصحاب الشاذلي
- "الأسرار الجلية في المناقب الدهمانية"، لأبي زيد عبد الرحمان ابن الدباغ
- مناقب أبي سعيد الباجي، لعلي بن محمد الهواري
- مناقب محرز بن خلف، لمحمد بن الحسن الفارسي
- مناقب أبي عبد الله محمد المغربي (ت. 699 هـ)
- ابتسام الغروس في مناقب ابن عروس (ت. 868 هـ)
- مناقب أحمد التباسي (ق 9 هـ)، لأبي الحسن علي بن ميمون الغماري، وغيرها من

المخطوطات التي زادت على الثلاثين، وكلها ترجع إلى الفترة الوسيطية (القرن الخامس الهجري- القرن التاسع الهجري)(سلامة العامري، ن. 2001: 547- 549 و وقد أثبتت الدكتورة سلوى الزاهري أرقام هذه المخطوطات وأماكن وجودها، وذلك في أطروحتها الموسومة بـ "المناقب المرزوقية..)

وعلى الرغم من هذه الأهمية الكبيرة لكتب المناقب فإن المجهود التحقيقي المكرس لها لا زال ناقصا. إذ إن الأدب المناقبي ما يزال مخطوطا في مجمله(- نذكر على سبيل المثال لا الحصر: - "النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب"، لأبي عبد الله محمد بن صعد التلمساني (توجد أجزاء منه مخطوطة في عدد من الخزانات منها الخزانة العامة بالرباط رقم ك 1292، والخزانة الداودية بتطوان رقم 53 صعن) - " تقييد في ذكر شرفاء المغرب وصلحائه وقبائله"، لعبد العظيم الآزموري (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 1512) - " الوسيلة إلى المرغوب في كرامات الشيخ الوالي أبي يعقوب"، (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 9447)- " مناقب أبي يعزى آل النور" (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 2100د/1)، ولم يحقق منه إلا القليل، خاصة في السنوات الأخيرة. ويمكن القول إن أكثر ما نشر أو حُقق من مؤلفات مناقبية خلال النصف الأول من القرن الماضي (القرن العشرين) في حاجة إلى إعادة تحقيق، على ضوء ما استجدّ من نسخ مخطوطة(الزاهري، س. 2004: 08)

أسبقية المدرسة الفرنسية في تحقيق التراث المناقبي المغربي:

وقبل استعراض نماذج مما حُقق من كتب المناقب الراجعة للعصر الوسيط (الشاذلي، ع.ل: 1988 – المرابط الترغي، ع.ل: 1996)، يجدر بنا أن نذكر بأن المدرسة الاستعمارية الفرنسية كانت سباقة للاهتمام بهذا النوع من المؤلفات، وذلك في سياق بحثها عن جذور المعتقدات الشعبية للمغاربة، وأسباب تقديسهم لأضرحة الأولياء ولرباطاتهم. ففي الجزائر قام المستعرب الفرنسي(F. Provenzali) بترجمة كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، لابن مريم التلمساني إلى اللغة الفرنسية ونشره سنة 1910 تحت عنوان:
Bostan ou jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen

أما في المغرب فقد عمد المستعرب الفرنسي جورج كولان (G. Colin) منذ سنة 1926 إلى ترجمة تراجم كتاب "المقصد الشريف" لعبد الحق البادسي، ونشره بالمجلد 26 من سلسلة " المحفوظات المغربية" *Archives Marocaines* التي كانت تصدرها " البعثة العلمية" *La Mission Scientifique* وهي البعثة التي حُددت مهمتها في "البحث في عين المكان عن الوثائق القمينة بدراسة المغرب، وفهم تنظيمه الاجتماعي، عن طريق الكتب والمخطوطات والروايات الشفوية، وتراث القبائل والأسر، إلخ..."(Bellaire, M: 1925. 22) واستتبع ذلك ظهور مجموعة من المنغرافيات والدراسات الفرنسية حول المعتقدات الدينية للمغاربة، لا تخلو من محاولة لربطها بالماضي الوثني. ثم عمد أدولف فور(A. Faure) سنة 1958 إلى إصدار كتاب "التشوف إلى رجال التصوف"، ضمن مطبوعات معهد الأبحاث العليا المغربية (الجزء الثاني عشر)، وكان لهذا الرجل اهتمام خاص بالنصوص المناقبية، إذ نجده يشترك مع الأستاذ محمد الفاسي بعد ذلك، في تحقيق كتاب "أنس الفقير وعز الحقير"، لابن قنفذ القسنطيني، وأصدراهُ ضمن منشورات المركز الجامعي للبحث التاريخي، سنة 1965.

لكن هذا الاهتمام سرعان ما انتقل إلى "المدرسة" التاريخية المغربية الحديثة المنادية بضرورة الانفتاح على المصادر التاريخية التي ظلت إلى وقت قريب، خارج دائرة المؤرخ؛ وعلى رأسها: كتب المناقب؛ وظهرت مجموعة من الدراسات الحديثة الموظفة للأدب المناقبي، سواء في ميدان البحث التاريخي، أو في ميادين أخرى من العلوم الاجتماعية، كالسيميائيات والأنتروبولوجيا(مفتاح، م: 1997- Zeggaf A:1988)؛ مما نتج عنه تحميس عدد من الباحثين للانكباب على تحقيق كتب التصوف والمناقب بالجامعات المغربية وغيرها؛ فصدرت رسائل وأطروحات مستوفية على العموم لمستلزمات التحقيق العلمي، نذكر من بينها:

- أطروحة دانييل جريل سنة 1986: "رسالة صفي الدين بن أبي منصور الأنصاري" المتوفى سنة 682 هـ

- رسالة الأستاذ على الجاوي سنة 1996: " المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى"، لأحمد التادلي الصومعي

- رسالة الأستاذة فاطمة الزهراء النظام سنة 1997: "الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس"، لابن عيشون.

- أطروحة محمد الشريف سنة 2002: "المستفاد في مناقب العبّاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد"، لمحمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي.

كما أن هناك مؤلفات مناقبية حققت لنيل شهادات جامعية عليا، ولكنها لا زالت مرقونة، (أي في حكم المخطوطات) نذكر منها:

- كتاب "إثمد العينين ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين"، لأبي محمد عبد الله ابن تجلات.

- كتاب " بهجة الناظرين وأنس العارفين"، لابن عبد العظيم الآزموري(حققها الأستاذ محمد المازوني ملحقة برسالته لنيل دبلوم الدراسات العليا سنة 1986- 1987، حول "آل أمغار في تيط وتامصلوحت" (نسخة مرقونة بكلية الآداب بالرباط).) توفي في بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

- كتاب " المنهاج الواضح في تحقيق كرامات الشيخ أبي محمد صالح"، لإبن أبي محمد صالح الماجري، المتوفى منتصف القرن الثامن الهجري.

- كتاب "المناقب المرزوقية" لأبي عبد الله محمد ابن مرزوق الخطيب (توفي 781 هـ)

هذا وقد أعيد طبع عدد آخر من المؤلفات المناقبية، نذكر منها:

- "رسالة روح القدس"، لمحيي الدين بن عربي (طبع أكثر من مرة)(نشرها أول مرة المستعرب الإسباني آسين بلاسيوس سنة 1939، وصدرت طبعات بعد ذلك منها تلك التي أصدرها محمود محمود الغراب عن مطبعة نضر، دمشق، الطبعة الأولى، 1985، (الطبعة الثانية، 1994) كما ترجمت رسالة روح القدس إلى الفرنسية على يد Austin بعنوان *Les Saints d'Andalousie* وصدرت بباريس سنة 1979 مصحوبة بتراجم متصوفة آخرين مستخرجة من كتاب "الدرة الفاخرة في ذكر من انتفعت به في طريق الآخرة" لابن عربي.)

- "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، لابن مريم التلمساني (صدر ضمن ديوان المطبوعات الجزائرية سنة 1986 بعناية عبد الرحمان طالب. وكانت الطبعة الأولى منه قد صدرت بالجزائر سنة 1908 بتحقيق ابن أبي شنب.).

- التشوف إلى رجال التصوف" لإبن الزيات التادلي(تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، 1984).

- "السلسل العذب والمنهل الأحلى"، لمحمد بن أبي بكر الحضرمي(صدر ضمن منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا سنة 1988 بتحقيق ذ. مصطفي النجار وكان قد نشره أول مرة الأستاذ محمد الفاسي بمجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد العاشر، الجزء الأول، 1966. وعلى الرغم من المجهود المحمود الذي بذله الأستاذ مصطفى النجار، فإنه يتواضع حينما يصرح في مقدمته بأن عمله هذا "لا يدخل في مفهوم التحقيق، ولا ينطبق عليه مدلول الدرس، إذ لهذا وذاك علم خفاق لا يحمله إلا زند أيّد، ولا يعرفه إلا عضد قوي، ولا تضطلع بأعبائه إلا كف مقتدرة لا تجبن ولا تخاف" (السلسل العذب، ص 10).

- " المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف"، لعبد الحق البادسي(صدرت الطبعة الثانية بالرباط، سنة 1993).

وتم تحقيق المؤلفات التالية:

- أخبار أبي العباس السبتي(حققه الأستاذ أحمد التوفيق وأصدره ملحقا بكتاب التشوف إلى رجال التصوف، الرباط، 1984)

- "دعامة اليقين في زعامة المتقين" (مناقب الشيخ أبي يعزى)، لأبي العباس أحمد العزفي(صدر سنة 1989 بتحقيق أحمد التوفيق).

- "سبك المقال لفك العقال"، للشيخ عبد الواحد ابن الطواح(صدر ضمن منشورات دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1995 بتحقيق محمد مسعود جبران)

- "مختصر نزهة الأفكار وحلة الأبرار في مناقب سيدي عبد القادر وشيخه الفخار"، لمؤلف مجهول(صدر عن منشورات جمعية تطاون أسمير، سلسلة تراث 1، تطوان 1996 بتحقيق جعفر ابن الحاج السلمي)

- "السر المصون فيما أكرم به المخلصون"، لطاهر بن محمد الصديقي(تحقيق ذ. حليمة فرحات، دار الغرب الإسلامي، 1998).

نماذج من تحقيق التراث المناقبي :

- كتاب "أنس الفقير وعز الحقير"، لأبي العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني المتوفى سنة 810 هـ/1407- 1408م. لقد "اعتنى بنشره وتحقيقه"، كل من محمد الفاسي وأدولف فور، وأصدراه ضمن منشورات المركز الجامعي للبحث التاريخي سنة 1965. وقد اعتمدا في تحقيقهما على خمس نسخ. ولعله من ضروري الانكباب على إعادة تحقيق هذا الكتاب وضبط أعلامه على ضوء ما اكتشف من كتب مناقبية كانت في عداد المفقود في الستينيات من القرن الماضي.

- كتاب "تحفة المغترب ببلاد المغرب" (في كرامات الشيخ أبي مروان اليحانسي) نشره وحققه المستعرب الإسباني فرناندو دي لا غرانخا، وأصدره بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد(المجلد 17، 1972- 1973، صفحة 7- 179).

تم أعيد طبعه في كتاب مستقل. وقد اعتمد في تحقيقه على "نسخة فريدة ضمن مجموعة من الموضوعات المتنوعة التي يتضمنها المخطوط رقم 3486 في المكتبة الوطنية بباريس". وقد خصص فيرناندو دي لا غرانخا دراسة مقتضبة أبرز فيها أهمية كتاب "التحفة"، ووصف فيها المخطوطة التي اعتمد عليها وكيف أنها "ليست مؤرخة، مع أنها قديمة تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي. ولا نعثر فيها على اسم الناسخ. وهي مكتوبة بخط مغربي غير أنيق وكثير الإهمال، وهي في كثير من المواضع مكتوبة بخط غير معجم الحروف، وهناك بضعة كلمات قليلة مشكولة جزئيا أو كليا. وعناوين الفصول مكتوبة بحبر أحمر وبخط كبير الحروف. والصفحات تختلف في عدد أسطرها فهو يتراوح ما بين 22 و 27؛ وأوراق لمخطوطة غير مرتبة، فقد وُضعت لها أرقام بعد تجليد الكتاب، لكننا قمنا بترتيب هذه الأوراق وأشرنا إلى ذلك في الهوامش، ولم نكثر من الملاحظات إلا حين وجدنا أنها ضرورية لا غنى عنها".

والجدير بالذكر أن هذه النشرة من كتاب "تحفة المغترب" تخلو من الفهارس كما تخلو من التعليقات. وقد أرجأ المستعرب الإسباني "التعليق والتفسير ومناقشة العديد من الجمل والعبارات الغامضة في النص" إلى حين إصدار الترجمة الإسبانية للكتاب. أي أن كل ما يتعلق بضبط النص وتحقيقه لا وجود له في النشرة التي بين أيدينا.

- "مناقب أبي يعقوب الزهيلي البادسي" (المتوفى ببادس سنة 734 هـ/1332م)، لأبي محمد عبد الله بن محمد الأوربي (توفي سنة 786 هـ/1384- 85 م). نشرها أحمد البوعياشي ضمن كتابه: "حرب الريف التحريرية ومراحل النضال"(الجزء الأول، طنجة (1974؟) ص 301- 343).اعتمد الناشر على نسخة مخطوطة واحدة، لم يعرّف بها ولا بمكان وجودها. والكتاب وثيقة في غاية الأهمية للوقوف على الواقع الاجتماعي

والاقتصادي لمنطقة الريف خلال القرن السابع والثامن الهجريين. إلا أنه في حاجة إلى تحقيق علمي، خاصة بعد توفر نسخ أخرى من المخطوط(نسخة بمكتبة ابن يوسف بمراكش، ضمن مجموع رقمه 678، نسخة المكتبة الحسنية ضمن مجموع رقمه 9447).

- كتاب "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف"، لعبد الحق بن إسماعيل البادسي (كان حيا سنة 722 هـ)، قد صدرت ترجمة فرنسية لقسم التراجم منه سنة 1926 على يد المستعرب الفرنسي جورج كولان الذي أغنى الترجمة بعدد من التعاليق المهمة. أما نصه العربي فقد ظل مخطوطا إلى أن صدر سنة 1982 بتحقيق المرحوم سعيد أعراب. وقد أوضح المحقق النهج الذي سار عليه في عمله التحقيقي قائلا:

"حاولت - ما استطعت- تقويم النص، وأرجعت بعض النصوص إلى أصلها، ولم أرد أن أثقل الكتاب بالشروح والحواشي، إلا أن طبيعة النصوص التي تضخم بها القسمان الأولان من الكتاب، اقتضت منا بعض تعاليق ... وربما ترجمت لبعض الأعلام تراجم مقتضبة مكتفيا بالإحالة على مصادرها. وقد ذيلت الكتاب بتراجم مفصلة، تلقي أضواء كاشفة عن موضوعاته وأهم محتوياته".

وعلى الرغم من المجهود الكبير الذي بذله المرحوم سعيد أعراب، واعتماده على أربع نسخ، تميزت "جميعها بكثرة التصحيف والتحريف"، فإن تحقيقه جاء ناقصا لترجمتيْن توجدان في الترجمة الفرنسية، وهما: ترجمة أبي عبد الله الدباغ، وترجمة أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم ابن الصباغ والغريب أنه لم يتم استدراك هذا السقط في الطبعة الثانية لكتاب المقصد الشريف

- كتاب " التشوف إلى رجال التصوف"، لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات(تحقيق أحمد التوفيق. 1984، وقد صدرت ترجمة فرنسية لكتاب التشوف مؤخرا.). وقد صدرت طبعته الأولى سنة 1958 ضمن مطبوعات معهد الأبحاث العليا المغربية باعتناء أدولف فور.

ولقد أشاد أحمد التوفيق بـ"المجهود العظيم" الذي بذله الأستاذ فور في مقابلة ثمان نسخ مخطوطة ترجع كتابة أقدمها إلى أوائل القرن الحادي عشر الهجري، "أي أنها متأخرة عن تاريخ كتابة الأصل بأربعة قرون كاملة". ويمكن إرجاع دواعي إقدام أحمد التوفيق على إعادة تحقيق كتاب التشوف إلى عنصرين أساسيين:

أولهما: وقوفه على عدد من النسخ المخطوطة للتشوف في الخزانة الحسنية والخزانة العامة بالرباط وفي خزانة القرويين وفي خزائن الخواص، فاقت في عددها تلك التي اعتمدها أدولف فور في نشرته الأولى. وقد نهج التوفيق مسلكا مغايرا لما سلكه أدولف

فور في مقابلته بين النسخ المخطوطة، "فبينما استعمل فور نسخه الثمان ليكثر من إثبات القراءات المختلفة في الحواشي، سعينا - يقول التوفيق- إلى إبطال كثير من هذه الحواشي في القراءات التي ثبت فيها وجه لا يتطرق إليه الشك، وأثبتنا الوجه المرجح في الحالات الأخرى... وقد تأتى لنا أن نستدرك بهذه النسخ عددا من الكلمات والجمل التي لا توجد في طبعة فور".

ثانيهما: استعداده العلمي والذاتي لتصحيح الأغلاط والتصحيفات التي تزخر بها مخطوطات التشوف ولا سيما في العجمي من أسماء الأشخاص والأماكن، وما أكثرها في كتاب ابن الزيات. وإلى ذلك يشير أدولف فور في إحدى استدراكاته: " إن الأعلام البربرية في هذا الكتاب سواء كانت أعلام الأشخاص أو أعلام الأمكنة لعديدة جدا، وضبطها ضبطا لا شك فيه، مسألة يصعب حلها". إنها مشاكل عويصة "لم يجرؤ أدولف فور على اقتحامها، بل لم يحاول ذلك البتة إلا في جزئية صغيرة لا نظن أنه وُفق في اجتهاده فيها". يقول أحمد التوفيق:

"إن الذي جعلني أبحث في هذا النص وأركب مركبه الصعب هو قراءة متكررة لتراجمه عندما كنت أبحث في تاريخ هسكورة في العصر الوسيط تمهيدا لتاريخ قبيلة إينولتان في القرن التاسع عشر. فكتاب التشوف يتضمن تراجم عدد من أتقياء الهساكرة، ولما راجعتها على ضوء التحريات الميدانية التي كنت مضطرا إليها تبين لي إمكانية إصلاح بعض أسماء الأعلام وإمكان التعريف ببعضها الآخر، وأدركت أنه لو وقع التوسع في البحث ليشمل مجموع المناطق التي ينتمي إليها المترجَمون في الكتاب لأمكن التعرف على مواطن جلهم ... لأن بعض الرسوم ما تزال قائمة بالرغم من تبدل الأحوال ودروس الديار وعفاء الزمن".

لذلك أخذ أحمد التوفيق على عاتقه مهمة تصحيح رسم الأعلام أو قراءتها متوسلا في ذلك بمعرفته الجيدة بلغة المواطن الأصلية للمترجمين، ولا سيما بالقاموس الذي وضعه شارل دوفوكو للغة التوارك التي حافظت على كثير مما اندثر في المغرب الأقصى من الدلالات الصنهاجية.

والجدير بالذكر أن تحقيق أحمد التوفيق ينفرد بخصلتين أخريتيْن تخلو منهما طبعة أدولف فور:

- أولاهما هي وضعه لخريطة "تبين ولو بصفة تقريبية في بعض الأحيان، مواقع القبائل والأماكن المذكورة ومواقع الرباطات ومدافن المترجمين"،
- وثانيتهما هي تحقيقه لأخبار أبي العباس السبتي وطبعه ملحقا بكتاب التشوف.

نموذج من الأطروحات المرقونة: " المناقب المرزوقية" لابن مرزوق الخطيب

هي أطروحة تقدمت بها الباحثة سلوى الزاهري لنيل الدكتوراه بكلية الآداب بتطوان سنة 2004، تحت عنوان "المناقب المرزوقية لأبي عبد الله محمد ابن مرزوق الخطيب: دراسة وتحقيق"، كشفت فيها - لأول مرة- ، عن مخطوط يكتسي أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الغرب الإسلامي. تقول الأستاذة الزاهري في تسويغ دواعي اختيارها لهذا المخطوط موضوعا لأطروحتها:

" لقد ظل مخطوط " المناقب المرزوقية" مجهولا لدى الباحثين والمهتمين بتاريخ المغرب ومصادره، إلى أن ظهرت نسخة مخطوطة منه ضمن جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1979. ولكن لم يلتفت إليها الباحثون، ولا أعاروها اهتماما، ولم يعرّف بها أحد، لا في مقال، ولا في نشرة علمية. بل ساد الاعتقاد أنها نسخة من فهرسة ابن مرزوق الموسومة بـ "عجالة المستوفز..."، وهو العنوان الذي نجده مثبتا على شريطها في الخزانة العامة بالرباط. بل إن مصوّرة الدكتور عبد الله المرابط الترغي من هذه المخطوطة تضم العبارة التالية: " أخبرني الدكتور محمد بن شريفة أن نسخة أخرى من هذا المخطوط توجد بالخزانة الحسنية"، ولعل المقصود بذلك، نسخة الخزانة الحسنيّة الوحيدة، من "عجالة المستوفز"، المعروفة لدي المهتمين بكونها "نسخة رديئة جداً، متلاشية مرممة الأوراق، مطموسة الكتابة". ولئن كنا لا نستبعد وجود نسخة من "المناقب المرزوقية" ضمن إحدى المجاميع الغير مفهرسة بهذه الخزانة العامرة، فإننا لم نتوفق في العثور عليها، رغم إصرارنا وإلحاحنا في السؤال عنها.

وبالنظر إلى حالة هذه المخطوطة الأولى من "المناقب المرزوقية"، وما أصابها من سقط وخروم واختلاط في ترتيب الأوراق، وغيرها من العيوب والنواقص، لم يكن من الوارد المجازفة بالاشتغال عليها، أو اتخاذها موضوع أطروحة، على الرغم مما كان يخالجنا من رغبة شديدة للإقدام على ذلك.

ولم يكن الحصول على نسخة مخطوطة ثانية من هذا العمل بالشيء الهين، فقد استفرغنا جهداً في تصفح فهارس المكتبات والخزائن العمومية، وكاتبنا عدداً من العلماء والباحثين الذين لهم إلمام بالتراث المغرابي، في كل من المغرب والجزائر وتونس، نستفسرهم عن إمكانية وجود أثر لهذا المؤلف في مكتبة من المكتبات، أو ضمن مجموع غير مفهرس؛ فأكدوا عدم معرفتهم بالمخطوط. ويسر الله تعالى سبل الحصول على نسخة ثانية من هذا المخطوط بفضل إشارة حميدة من الأستاذ الباحث المطلع، السيد عبد العزيز الساوري، الذي هداني إليها، وهي بدورها من ضمن جوائز الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1996، وفُهرست هي الأخرى، تحت عنوان غير دقيق، لا

يعكس محتواها وهو: "تقييد في شيوخ ابن مرزوق"، بما يوحي بأنها فهرسته "عجالة المستوفز".

وحينما حصلت على مصورة من المخطوطة الثانية، وقابلت النسختين تبين لي أنهما نسختان متكاملتان لا علاقة لهما بفهرسة ابن مرزوق، ومن شأن تكاملهما أن ييسر إخراج نسخة مقبولة، تطمئن إليها نفس الباحثين.

وبالفعل، ما كان ساقطا في النسخة الأولى احتفظت به النسخة الثانية كاملا، وما أتت عليه الأرضة من النسخة الثانية نجى منها في النسخة الأولى. وبذلك تكاملت النسختان، وغطت الواحدة منها على عيوب الثانية. ولذلك عزمت على جعل المخطوط موضوع دكتوراه، بعدما تبين لي أهميته التاريخية، وما يمثله من إضافة نوعية إلى رصيد المكتبة التراثية المغربية".

أما الخطوات التي اتبعتها في تحقيقها فإنها تستلهم المبادىء الأساسية التي يوصي بها أهل علم التحقيق في العالم العربي الإسلامي. تقول المحققة:

"لقد انقسم العمل في هذه الأطروحة إلى مرحلتين متكاملتين: أولهما مرحلة التحقيق والتعليق والمقابلة بين النسختين، وثانيهما مرحلة الدراسة. فعمدت في المرحلة الأولى إلى نقل المجموع، واستخراج ما تضمنه من أعلام بشرية وجغرافية، والتعريف بأكبر عدد منها، بالإضافة إلى استخراج الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وكذا أسماء القبائل والجماعات وأسماء الكتب، والمصطلحات الحضارية.

هذا فيما يخص عملية التحقيق، أما فيما يتعلق بمرحلة الدراسة، فلقد تلخصت في تقديم هذا العمل بمقدمة شاملة حول الأوضاع العامة ببلاد المغرب في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وألحقت بها ترجمة مفصلة لابن مرزوق، مؤلف "المناقب المرزوقية"، إضافة إلى توضيح مضمون النص المحقق، وإبراز قيمته، وفحصه من الداخل، بتناول مصادره، ومنهجيته، وأسلوبه، وظروف تأليفه، وغيرها من المواضيع التي أضاءت الإطار العام للنص، فضلا عن وصف المخطوطتين المعتمدتين في التحقيق، والمنهجية المتبعة في ذلك.

والحال أن دراسة هذا المخطوط، لم تكن لتكتمل لولا الاحتكاك الدائم والمتواصل بأمهات المصادر والمراجع، التي كان لها بالغ التأثير في ثراء مادتي المعرفية، وتطوير تجربتي في ميدان التحقيق.

ولقد حتمت علينا عملية التحقيق والدراسة الرجوع إلى مختلف مصادر الغرب الإسلامي، مهما تباينت أصنافها، فنهلنا من معين كتب التاريخ، والرحلات، والتراجم، والمناقب، والفتاوى، واضطررنا في كثير من الأحيان للاستعانة بالمصادر المشرقية. على

أن استفادتنا كانت متباينة من هذه المصادر، فقد عولنا بالدرجة الأولى على مصادر القرن الثامن الهجري، أي المصادر المعاصرة لابن مرزوق...

اعتمدت المحققة على نسختين مخطوطتين من المخطوطات التي نالت جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق. وبما أن صيانة النص والحفاظ على سلامته وإخراجه على الصورة التي تسهل الرجوع إليه والاستفادة منه فيما بعد، أمر تفرضه الأمانة العلمية، فإن المحققة شرعت في البحث في مختلف الفهارس المعروفة وذلك للحصول على نسخ أخرى للمقابلة والضبط. إلا أنها لم تهتد إلا إلى النسختين المعتمدتين في هذا التحقيق، فقامت بتركيب نسخة ملفقة منهما، قائمة على ملاحظة الفروق من زيادة أو نقص بين النسختين، دون اعتماد إحداهما أصلا، لتكاملهما. وقد استفرغت جهدها في العناية بالنص وضبطه ومقابلته وإخراجه بصورة مقبولة عموما، شكلا ومضمونا، متبعة الخطوات التالية:

- حددت نهاية كل صفحة من النسخة "أ" بوضع رقمها بين نجمتين هكذا ❖ ❖، ونهاية كل صفحة من النسخة "ب" بوضعها بين خطين مائلين هكذا / /.

- ميزت بين هوامش مقابلة النسختين وهوامش التخريجات والتعليقات والحواشي، بأن وضعت أرقام التخريجات بين هلالين: هكذا (1)، (2)، (50) ...إلخ، بينما تركت أرقام هوامش المقابلة من دون هلالين 1،2، 50... إلخ.

- أشرت إلى ما يوجد في كل واحدة من النسختين من سقط أو تحريف أو تصحيف أو غلط أو اختلاف أو زيادة.

- حافظت على النص الأصلي كما هو، إلا في بعض الحالات التي عملت فيها على تصويب تحريف أو تصحيف، أو إضافة كلمة يقتضيها المعنى، قدّرنا أنها سقطت من النص، مع الإشارة لذلك في الحاشية.

- وعملت في بعض الأحيان (القليلة) على مقابلة نص النسختين مع ما جاء في بعض المصادر الأخرى، وتخريجها وإثبات الاختلافات بينهما وتصويب بعض الكلمات أحيانا.

- أدخلت في النص علامات الوقف، وجزأته فقرات بحسب ما يقتضي ذلك، تسهيلا لقراءة فصوله، ولتمييز ما جاء فيه من معطيات.

- التزمت بقواعد الرسم الإملائي الحديث، مثل: مونة- مؤنة، ونلقا، نلقى، وليلا، لئلا، وعثمن، عثمان...إلخ، دون أن أشير إلى ذلك في هامش التحقيق.

- وثقت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، على قلتها.

- أضفت إلى هوامش تحقيق النص هوامش وحواشي أخرى وتعليقات تتضمن معلومات حول أعلام الأشخاص والأمكنة والأحداث التاريخية، والكتب الواردة في الكتاب،

وكل ما يتطلب مزيدا من الإيضاح أو التدقيق، معتمدة في ذلك في أكثر الأحيان على المطبوع من كتب التراجم والتاريخ.

- كما عملت على تتبع الإشارات التاريخية والدينية، وعملت على وتوضيح سياقها التاريخي.

- وضعت طائفة من الفهارس (تسعة) لتيسير الاستفادة من النص المحقق.

خلاصة القول: يمكن اعتبار هذه الأطروحة نموذجا للتحقيق العلمي الأكاديمي الرصين، فلا غرابة أن أوصت لجنة مناقشته (كانت لجنة المناقشة مكونة من الأساتذة: ماريا خيسوس بيغيرا (من جامعة مدريد)، محمد مفتاح، محمد المغراوي، امحمد بن عبود) بطبعها وترجمتها إلى إحدى اللغات الأوربية.

السر المصون: ما بين التحقيق العلمي والنشر التجاري

صدر كتاب "السر المصون في ما أكرم به المخلصون" لمؤلفه طاهر الصديقي، عن دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1998 بتحقيق وتقديم الدكتورة حليمة فرحات، في 128 صفحة، بالإضافة إلى دراسة باللغة الفرنسية في 35 صفحة.

وقبل إبداء بعض الملاحظات حول هذا التحقيق وجب التنويه بأن الأستاذة حليمة فرحات هي إحدى الباحثات المغربيات الأكثر احتكاكا بالأدب المناقبي، وعليه اعتمدت في دراساتها المنشورة جلها باللغة الفرنسية(فرحات، ح: 2005. 3- 4)، نذكر من بينها كتاب "التصوف والزوايا ببلاد المغرب"(Ferhat,H: 2003)، وكتاب "بلاد المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر: قرون الإيمان"(Ferhat,H:1993) الذي يحتوي على مجموعة من مقالاتها حول كتب المناقب المغربية(Ferhat,H-Triki,H: 1986.17-51).

بيد أن المتصفح لكتاب "السر المصون" ليسترعيه غياب كافة مستلزمات التحقيق العلمي الأساسية منه؛ من قبيل وصف المخطوطة المعتمدة، ودقة القراءة والضبط والشرح والتخريج والتعريف بالأعلام والأماكن والتصويب والتعليق والتذييل وعمل الفهارس...إلخ. وفيما يلي نماذج من ذلك.

- تقديم بلغة مهلهلة وأخطاء بالجملة:

ينص علماء التحقيق أن من شروط المحقق التمكن من اللغة العربية وقواعد الإملاء والعلوم الآلية وغيرها. بيد أن المتصفح لمقدمة كتاب "السر المصون" قد يصاب بصدمة وهو يطوي صفحاتها. ففضلا عن كثرة الأخطاء المطبعية والإملائية والنحوية، فإن اللغة التي صاغت بها المحققة ما سمته بـ "تقديم التحقيق ودراسة النص" هي لغة مهلهلة سقيمة، لا تكاد تفهم. فيختلط الأمر علينا منذ السطر الأول حينما تقول أن "النص الذي نقدمه

هو رسالة في التراجم عنوانها "السر المصون في ما أكرم به المخلصون". فلا ندري ما المقصود بـ "رسالة في التراجم"؟، ثم تعود لتؤكد في مكان آخر بصيغة مبهمة وأسلوب ركيك بأن "السر المصون هو من أقدم المتون المحفوظة في المناقب مما يتعلق ببلاد المغرب والأندلس". ولا تخلو أي صفحة من صفحات المقدمة من الركاكة والغموض، والأمثلة على ذلك تند عن الحصر، نذكر منها على سبيل المثال:

ص 10: "إن نص السر المصون قد ورد مذكورا في تاريخ الأدب العربي لبروكلمان البارزي فقد حلي بأنه من أعيان عهد الممالك"!.

ص 15: " بعض الإشارات المنتشرة في نص السر المصون تتصل بشخص مؤلفه طاهر الصديفي"

ص16: " أقام الصديفي بمصر ولا سيما في الإسكندرية مدة غير يسيرة، ولكننا لا نستطيع تحديد مدة هذا القيام بكيفية دقيقة"

ص 17:" ... لقي فيها رجلا من ذوي الأسرار اللائحة"

" لا يكترث المؤلف بذكر تفاصيل تعين المواقع التي يشير إليها".

ص26:" تقلب المؤلف وأشخاص حكاياته في وسط اجتماعي ملؤه من عامة الناس... وغيرهم نجارون خراطون أو غراسون للأشجار أو بستانيون أو حراسون للمروج"!

ص27 هامش 1: "والمؤلف يستعمل مصطلحا خاصا(ولعله من لغة عامة الصعيد) لحرفة الذي تيسلق لتأبيره" !

ص28: " بيد أن المبالغة في ذلك التحريض مما لا تخفى دوافعه"!

ص 28: " وصلحاء آخرون لا يتأبون عن صحبة بعض الأمراء ويغنمون في ذلك انتفاعات يخففون بها آلام العامة"!

ص 29: " إذا كان عدد من الصلحاء، شأنهم شأن المؤلف، ينسبون في الأخذ إلى ابن العريف... أظهر [ابن تومرت] نفسه تلميذا للغزالي في المشرق وأضاف إليه الطرطوشي كما لو كان يريد أن يعدل الكفة" ! إلى غير ذلك من الجمل والعبارات التي تمجها الأذن.

- بيبليوغرافيا وإحالات غير مضبوطة

يخلو كتاب السر المصون من لائحة المصادر والمراجع. أما ما أوردته الباحثة في هوامش تقديمها للنص، ففضلا عن كونه عبارة عن ترجمة عربية لعناوين أصلها باللغة الفرنسية مع ما يستتبع ذلك من غموض(- مثلا تحيل المحققة على مقال لها بعنوان: غرائب وعجائب، في ندوة المغرب والأطلنتيك, والعنوان الأصلي للمقال هو:

(Démons et Merveilles, in le Maroc et l'Atlantique)، فإنه يفتقد في أغلب الأحيان إلى الضبط البيبليوغرافي (إغفال الطبعات، وأسماء المحققين، وسنوات النشر...)

إن مجمل هذه الهفوات ناتجة عن كون التقديم الذي خصصته المحققة لتحقيقها هو عبارة عن ترجمة عربية رديئة لما كتبته باللغة الفرنسية، ونشرته في ذات الكتاب.

- ورطة الاعتماد على النسخة الوحيدة:

اعتمدت الأستاذة حليمة فرحات على نسخة وحيدة في "تحقيقها" لكتاب السر المصون، هي المحفوظة بمكتبة برلين تحت رقم 127 B. ومن المعلوم أن التحقيق اعتمادا على نسخة واحدة يعد مغامرة علمية محفوفة بكثير من الصعاب. ولعل مراجعة الأستاذ أحمد التوفيق لهذا النص - وهو المحقق المشهود له بالكفاءة العلمية- يمنح نوعا من الاطمئنان للقارىء. بيد أن المقارنة الدقيقة بين المخطوط والنص المطبوع من "السر المصون" يؤكد لنا أن المحققة لم تراعي في عملها ما تفرضه عليها الأمانة العلمية. فهي لم تشر بالمرة إلى ما أحدثته من تغييرات على النص الأصلي، ولا إلى دواعي ترجيحها لقراءة على أخرى، أو زيادة بعض الكلمات أو حذف أخرى. إن المحققة تدخلت في النص لكنها لم تشر إلى ذلك في الهوامش كما تفرض ذلك قواعد تحقيق النصوص. والأمثلة على ذلك كثيرة تند عن الحصر. مثلا:

- في المخطوط: "الباب الخامس من كتاب السر المصون فيما أكرم به المخلصون تأليف طاهر بن محمد بن طاهر الصدفي الأندلسي رحمه الله قال". وفي المطبوع ص 45 حذفت المحققة عبارة " تأليف طاهر بن محمد بن طاهر الصدفي الأندلسي رحمه الله قال"، مع ما لها من أهمية في إثبات إسم المؤلف ونسبه.
- ص 49 كل هذا ولا تأكل من سواه/ كل هذا بهذا هذا ولا تأكل من سواه
- ص 50 لا فرق بين صنيعة الجاه وصنيعة المال/ لا فرق بين ضيعة الجاه وضيعة المال
- ص 62: نظيف الثياب / لطيف الثياب في المطبوع
- ص 63: لم يدر ما وراءه ولا ما أمامه / لم يدر ما وراءه ولا أمامه

بما يشفي العلة ويثني الغلة/ بما يشفي العلة وينقع الغلة

وأجمع لخيري الدنيا والآخرة/ وأجمع لخيري الدنيا والأخرى

- ص 65 عولت على أن أستوهب منه الدعاء فالتفت فألفيته ففاتني ذلك/ عولت على أن أستوهب منه الدعاء ففاتني ذلك

ص 66 لئن لم ترد لي مات اغتصبت لأقلعن عينيك/ لئن لم ترد لي مات اغتصب لأقلعن عينيك

ص 91 تسور الحائط فطلع منه ونزل عدة دفعات/ تسور الحائط ونزل عدة دفعات.

- فهارس ناقصة

خصصت المحققة ثلاثة فهارس: "فهرس أصحاب التراجم" و"فهرس الأعلام غير المترجمين" وفهرس "المترجمون مرتبون أبجديا حسب إسم الشهرة مع أرقام تراجمهم".

وبذلك يتضح خلو الكتاب من فهارس أساسية لا ينبغي لأي محقق أن يغفلها، وعلى رأسها فهرس الآيات القرآنية(خرجت المحققة بعض الآيات وأغفلت أخرى) وفهرس الأحاديث، وفهرس الكتب وفهرس الأشعار وفهرس الأعلام الجغرافية... إلخ. ولا ندري ما الدافع الذي حدا بالمحققة إلى إدراج أعلام جغرافية (من قبيل الإسكندرية والأندلس وباغة وبحر النيل وسبتة وسلا والعراق واليمن... إلخ) ضمن "فهرس الأعلام غير المترجمين"؛ ولا ما يسوغ أن تدرج أعلام الجماعات (من قبيل بنو إسرائيل بنو أمية والعرب وفقهاء الأندلس والمرابطون)، ضمن هذا الفهرس، كما لا نفهم كيف تحشر "الموطأ" ضمن "الأعلام غير المترجمين" اللهم إلا إن كانت تعتبره علماُ؟

إن نصا مناقبيا من طينة "السر المصون" كان ينبغي أن تصنع له فهارس عدة يبرز غناه وخصوصيته من قبيل - فهرس المصطلحات الصوفية- فهرس الألقاب - فهرس الحيوانات - فهرس الأطعمة والأشربة - فهرس الألبسة والأفرشة - فهرس الأمم والشعوب - فهرس الأسلحة - فهرس المعادن- فهرس الأواني والآلات- فهرس النقود- فهرس الحرف والصناعات- فهرس المكاييل والأوزان- فهرس الألفاظ العامية- فهرس الأشجار والنباتات.

- تعليقات شحيحة على النص

ثمة ما يعرف بـ"مكملات التحقيق" أو ما يطلق عليه أهل هذه الصنعة "خدمة النص" خدمة علمية من حيث الشرح والتعريف بالأعلام والأماكن والتعليق والتذييل وغيرها، سعيا لإضاءة مستغلقات النص المحقق(هارون، ع‌س: 77)

بيد أن المتصفح لكتاب السر المصون ليسترعيه خلوه من الحواشي التوضيحية. إذ لا يتجاوز عدد التعليقات التي أفردتها له المحققة أحد عشر تعليقا. و الغريب أن هذه الحواشي اليتيمة لا تضيف جديدا للنص. بل تكاد تعرف بالمشهورين (أبو عبيد ابن الجراح- ابن العريف) أو تحيل على ورود بعض الأسماء الجغرافية في المصادر من دون بيانات توضيحية. مثلا نجد في الإحالة الواردة في ص 119 ما يلي: "سفح المقطم: الروض المعطار" ! أو تلك التي نجدها في ص 105: "رشيد: الإدريسي، 313". والجدير بالذكر أن المستشرق الألماني (فريتز مايير) قد أفرد للسر المصون 170 تعليقا، وصفتها المحققة بأنها "هوامش مستفيضة" ولا ندري لماذا لم تستفد منها، وحرمت بالتالي قراء العربية من الإطلاع عليها.

خلاصة القول، إن العمل الذي أنجزته الأستاذة حليمة فرحات لا يرقى إلى ما نطمح إليه من "تحقيق علمي" للتراث المناقبي المغربي الوسيط، وإنما هو "طبعة تجارية"، وبالتالي يظل كتاب "السر المصون" في حاجة لأن يحقق وفق ما تقتضيه قواعد التحقيق العلمي.

قائمة المصادر والمراجع

- الزاهري، سلوى(2004)، المناقب المرزوقية، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب بتطوان، المغرب.
- شكري، فيصل(نوفمبر1980)، "التراث العربي، خطة ومنهج"، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد 3
- التميمي، محمد. (2002)، المستفاد في مناقب العباد، تحقيق. محمد الشريف، الرباط، ، ج 1
- العامري، نللي سلامة (2001)، الولاية والمجتمع، مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي، تونس، جامعة منوبة.
- عبد اللطيف الشاذلي(1988)، التصوف والمجتمع: نماذج من القرن العاشر، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلا، المغرب.
- كتاب جماعي، (1989)،التاريخ وأدب المناقب، الرباط، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عكاظ.
- متنوعات حليمة فرحات، (2005)"، منشورات الجمعية المغربية للبحث العلمي ومعهد الدراسات الإفريقية، الرباط.
- المرابط الترغي، عبد الله، (1996) " كتب التراجم العامة وكتب المناقب خلال عصر المولى إسماعيل (1082- 1139 هـ)، المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، المغرب، العدد 51.
- هارون، عبد السلام، (د. ت)، تحقيق النصوص وشكلها، ط 3، الكويت، مكتبة الأمل.
- Ferha, Halima t et Triki, Hamid,(1986), " Hagiographie et religion au Maroc médiéval", Hespéris-Tamuda, vol. XXIV, , pp. 17- 51
- Ferhat, Halima(1993), Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècles: Les siècles de la foi,Wallada, Casablanca.
- Ferhat, Halima, (2003), Le soufisme et les Zaouyas au Maghreb, Toubkal, Rabat.
- Kably Mohamed, (1986), *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Paris.
- Michaux Bellaire, E, (1925), *« La Mission Scientifique du Maroc »*, Rabat, Services des Renseignements.
- Zeggaf A, (1988), *Des récits hagiographiques marocains. Essai d'analyse morphologique et mythologique*, thèse d'Etat, Université de Toulouse, France.